المحاضرة 2: إحياء النقد الأدبي – الشيخ حسين المرصفي

مثلما تحركت الجهود في الأدب لإحياء ماضيه وبعث كنوز القدماء شعرا ونثرا تحركت جهود نحو التراث النقدي بالروح نفسها نافخة الحياة في التقاليد النقدية العربية وهذا ليس بالمستغرب: "فحركة النقد تنبثق في كل بيئة أدبية كأنها رجع الصدى لصوت الشاعر والكاتب، وأول جهود النقد يأتي دائما على أيدي الأدباء أنفسهم، فهم الذين يمهدون للنقاد المختصين في كل أدب، وقد كان شعراء الجاهلية يحتفظون بقصائدهم قبل إذاعتها لتنقيحها وتهذيبها، ناظرين إلى شعرهم نظرة المصحح الناقد قبل نظرة الآخرين، ثم يظهر النقاد في أعقاب كل جهد أدبي أو أثناءه بعد استحكام الأصول الفنية". ص 303

وبالرجوع إلى السياق التاريخي لإحياء النقد، فقد ظهرت بواكيره عند الرواد الشاميين الذين كتبوا المقالة الصحفية فحرروها من الصنعة ودعوا إلى الشعر العصري بمضمون جديد يبتعد عن غثاثة التقليد وأغراضه المرسومة من مدح وهجاء، والذهاب نحو التأمل والمناجاة والوطنية والتفاعل مع أحداث العصر كما فعل خليل الخري وفرنسيس مراش وأديب إسحاق وفرح أنطون وسليم البستاني ونجيب الحداد ويقوب صروف وغيرهم. 303

كما ساهم الرواد المصريون من خلال الاحتفال بالجديد ووجهوا الشعر نحو الأغراض القومية الاجتماعية والوجدانية كما فعل أحمد محرم وأحمد شوقي وشكري وحافظ.

دور كتاب "الوسيلة الأدبية" في الإحياء: كان هذا الكتاب أحد معالم الطريق لتحقيق التطور في الشعر العربي الحديث، حيث وجه المواهب الإبداعية نحو التحصيل الأدبي والممارسة التعبيرية من خلال محاكاة النماذج الرفيعة من الأدب العربي قديمه وجديده (البارودي). ويعد حافظ إبراهيم أحد ثمرات توجيهه حيث يقول الرافعي عنه: "وفتن شاعرنا بما قرأ في الوسيلة من شعر البارودي فأصبح من يومئذ تلميذه وسار على نهجه في قوة اللفظ وجزالة السبك ومتانة الصنعة وجودة التأليف على نغم الألفاظ وأجراس الحروف" ص 244 وحي القلم ص 321 ج2 وقال عنه في مكان آخر من وحي القلم ص 320: "وكان الكتاب الأول الذي هداه إلى سر الأدب العربي وأرهف ذوقه وأحكم طبيعته هو كتاب الوسيلة

الأدبية للشيخ حسين المرصفي، ففي هذا الكتاب قرأ حافظ مختارات محققة عن فنون الأدب العربي في عصوره المختلفة ودرس ذوق البلاغة في أسمى ما يبلغ بها الذوق، ووقف على أسرار تركيبها وعرف عنه الطريقة التي نبغ بها البارودي". ص 244 الصراع

ويقول شكيب أرسلان: "وأحيت الوسيلة الأدبية للأدب العربي دولة جديدة بعد أن كان الناس يظنون أن الشعر هو عبارة عن النكتة وكان اجتهاد الشاعر من المتأخرين أن يضمن كل بيت نكتة من أدب وتاريخ أو مثل أو تورية أو استخدام بديعي أو طباق أو مقابلة أو لف ونشر أو جناس لفظي أو غير ذلك مما استقصاه علماء البلاغة" وخلص إلى القول أن أثر الوسيلة الأدبية كان من إنشاء شوقي وحافظ من الشعراء. 245

نموذج الناقد والنقد الإحيائي، الشيخ حسين المرصفي (ت 1889) وكتاب الوسيلة الأدبي: يقول د. محمد مندور: "لما كانت كل نهضة أدبية لابد أن تصاحبها نهضة مماثلة في دراسة الأدب ونقده، فقد كان من الطبيعي أن يظهر في تلك الفترة إلى جوار محمود سامي البارودي رائد البعث الشعري وعبد الله فكري رائد البعث النثري أستاذ وناقد يبعث علوم العربية وطرائق النقد الأدبي التقليدي عند العرب القدماء.. هو الشيخ حسين المرصفي". مندور النقد والنقاد المعاصرون ص06

ترك المرصفي ثلاثة كتب: زهرة الرسائل والكلمات الثمان والوسيلة الأدبية في جزءين بـ900 صفحة.

ضم الكتاب جميع علوم اللغة العربية: نحوا وصرفا وعروضا وفصاحة وبيانا وبديعا ومعاني ثم الأدب نثرا وشعرا. تحدث المرصفي في الكتاب عن كل فن باستطراد مستشهدا بما اختاره من التراث، وتناول شعر البارودي ونثر عبد الله فكري وهما معاصران له ووازن بينهما وبين القدماء. مندور 8

وقد تضمن الكتاب توجيها للأدباء الناشئين بأن يحفظوا أكثر ما يستطيعون من الشعر الجزل القديم ثم ينسوا بعد ذلك ما حفظوه حتى لا يظلوا عبيدا له، وحتى لا ينقلب شعرهم إلى ترقيع من الذاكرة بدل أن يكون شعر حياة ومعاناة، يوق: "اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطا أولها الحفظ من جنسه، أي من جنس شعر العرب، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، ويتخير المحفوظ من

الحر النقي الكثير الأساليب، وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شاعر من الفحول الإسلاميين مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذي الرمة وجرير وأبي نواس وحبيب والبحتري والرضي وأبي فراس وأكثر شعر كتاب الأغاني.. فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وإنما هو نظم ساقط، واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ، ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم بالإكثار منه حتى تستحكم ملكته وترسخ، وربما يقال إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها، فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها، كأنه منوال يأخذ النسج عليه لأمثالها من كلمات أخرى". مندور ص

نموذج من نقده والجديد فيه: وازن المرصفي بين شعر أبي نواس وشعر البارودي وبعد تفاصيل واستطراد وصل إلى قصيدة الأمير للبارودي وكانت على وزن قصيدة لأبي نواس ورويها أي معارضة لها ومطلعها:

تلاهيت إلا ما يجنّ ضمير وداريت إلا ما ينم زفير

وقال المرصفي في نهايتها: "أنظر هداك الله لأبيات هذه القصيدة فأفردها بيتا بيتا تجد ظروف جواهر أفردت كل جوهرة لنفاستها بظرف، ثم اجمعها وانظر جمال السياق وحسن النسق، فإنك لا تجد بيتا يصح أن يقدم أو يؤخر ولا بيتين يمكن أن يكون بينهما ثالث، وأكلك إلى سلامة ذوقك وعلو همتك، إن كنت من أهل الرغبة في الاستكمال للتبع هذه الطريقة المثلى". مندور ص 19

وعلق محمد مندور على هذه المنهجية بالقول: "إننا نحس بشيء يعتبر جديدا كل الجدة في عصر الشيخ حسين، وهو حديثه عن نسق القصيدة، وأنك لا تجد بيتا يصح أن يقدم أو يؤخر ولا بيتين يمكن أن يكون بينهما ثالث، فمثل هذا النقد لم نسمع به في نقدنا الأدبي المعاصر إلا بعد ذلك بما يقارب من نصف قرن عندما رأينا الأستاذين العقاد والمازني يطلبان متأثرين بالشعر الغربي بوحدة القصيدة العضوية وتنسيق تصميمها، ورأينا الأستاذ العقاد ينقد قصيدة شوقي في رثاء مصطفى كامل نقدا لاذعا، ويستخدم في هذا النقد تفكك القصيدة وانعدام النسق فيها، بحيث استطاع الناقد أن يقدم ويؤخر كيفما شاء من أبيات القصيدة دون أن يضطرب فيها معنى أو إحساس أو صورة". مندور 19

ومن نماذجه النقدية ما أورده في الكتاب نقلا متأثرا بابن الأثير، حيث قال: "إن هناك طريقتين في كيفية تعلم صناعة الإنشاء؛ إحداهما: أن يحفظ القرآن ويفهم معناه، وجملة من الأحاديث والآثار والأشعار، مع تحصيل ما يلزم تحصيله من الفنون السابقة، التي أشار إليها، مثل: النحو، والصرف، وعلوم البلاغة، ثم يجتهد في الإنشاء على نحو أساليب الكلام الذي حفظه؛ فتارة يصيب وتارة يخطئ، حتى يُحكم لنفسه طريقة أما الثانية وهي: أن يزيد على ما تقدم الاطلاع على منشئات من تقدمه، وحِفظ الكثير منها، أي: النصوص الأدبية القديمة السابقة، واستعمال الفكر في انتقاد تراثها، واختيار ما اختير ابتداء وانتهاء، ثم يأتي بما قدر عليه من اتباع أو اختراع."

ومن هنا فإن المنهج الذي يسير عليه المرصفي هو منهج الاتباع، وهو المنهج الذي يرسمه أيضًا للأدباء الناشئين هو منهج الاتباع، ومحاكاة النماذج القديمة، ولذلك من الوصايا التي يرى المرصفي أنّ طالب صناعة الإنشاء –وطالب صناعة الإنشاء هنا المراد به الأديب– الذي يرد أن يكون شاعرًا أو كاتبًا يوصيه فيقول: "لا بد أن يحفظ كثيرًا من الأمثال العربية، وغيرها من الأقوال الصادرة عن الحكماء؛ فإنها خزائن الحكم، ومستودعات المعاني، ومنها يعرف الحسن الإيجاز، وبراعة العبارات."

ويحرص المرصفي على تقديم زاد وفير من الثقافة الأدبية اللازمة للمبدع؛ فيذكر فيما يقرب من تسعين صفحة أمثالًا، ويَشرحها ويذكر مضاربها، ثم ينتقل إلى (ديوان الحماسة) موصيًا من يُريد تعلم صناعة الإنشاء أنْ يحفظ أشعاره التي اختارها المرصفي من أبواب الحماسة، ويطلب من المتأدب –الذي يريد أن يكون أديبًا– بعد أن يحفظ هذه الأشعار أن يشرحها نثرًا؛ لكي يدرب نفسه على ممارسة الكتابة، ولكي تنطبع في ذهنه صورة هذه الأساليب ومعاني هذا الشعر. وإذا تحدث عن نقد الشعر، يلجأ إلى كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ويلخص أبواب هذا الكتاب، ويدعو الأدباء والشعراء والنقاد إلى أن يتعلموا مما ورد فيه؛ لأن هذا الكتاب –في رأيه– يدل على جيد الشعر ورديئه، ويَدُلّ على المقاييس التي تساعد على تمييز الجيد والرديء من الشعر، وهي بالتأكيد عملية النقد.

كما نجد المرصفي يحاول تغيير مفاهيم وتعريفات نقدية سارية مثل تعريف القدماء للشعر بأنه الكلام الموزون المقفى، ويَرى أنّ هذا التعريف غير وافٍ، فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته، فالشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به. وهذا تعريف يتجاوز الشكل

الخارجي للشعر المعتبر في الوزن والقافية، ويتعمق في فهم حقيقة الشعر من جهة بنائه على الاستعارة والأوصاف، وكونه يجري على أساليب مخصوصة، وطرائق معينة، هذه الأساليب هي التي صار عليها الشعراء العرب في عصور الازدهار.

ومع ذلك لا يعدو المرصفي أن يكون ناقدا إحيائيا، قلّد سابقيه في درر نماذجهم النقدية، وجديده لم يبلغ ما فعله الديوان أو الغربال، لكن دوره في النهوض بالنقد والتمهيد للجديد كان دورا حاسما.